عنوان التوفيق

في آداب الطريق

(شرح قصيدة "ما لذَّة العيش" لشيخ الشيوخ سيدي أبي مدين الغوث رضي الله تعالى عنه)

تأليف

العارف بالله تعالى سيدي

أحمد بن عطاء اللَّه السكندري

رضي الله تعالى عنه

إصدار

واحة آل البيت لإحياء التراث والعلوم - فلسطين

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الشيخ العارف القدوة المحقق، تاج العارفين، ولسان المتكلمين، إمام وقته، ووحيد عصره، تاج الدين أبو الفضل أحمد بن محمد بن عبد الكريم بن عطاء الله السكندري رضي الله تعالى عنه ونفعنا به، آمين:

الحمد لله المنفرد بالخلق والتدبير، الواحد في الحكم والتقدير، الملك الذي ليس له في مُلكه وزير، الملك الذي لا يخرج عن مُلكه صغير ولا كبير، المتقدس في كمال وصفه عن الشبيه والنظير.

المنزَّه في كمال ذاته عن التمثيل والتصوير، العليم الذي لا يخفى عليه ما في الضمير، [أَلاَ يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرْ](سورة الملك: الآية 14)، العَالِم الذي أحاط عِلمه بمَبادِئ الأمور ونهاياتها، السميع الذي لا فضل في سمعه بين ظاهر الأصوات وخفاياتها، الرازق وهو المُنعم على الخليقة بإيصال أقواتها، القيوم المتكفل بها في جميع حالاتها، الوهاب وهو الذي منَّ على النفوس بوجود حياتها، القدير وهو المعيد لها بعد وجود وفاتها، الحسيب وهو المُجازى لها يوم قدومها عليه بحسناتها وسيئاتها، فسبحانه من إله مَنَّ على العباد بالجُودِ قبل الوُجود، وقام بهم بأرزاقهم على كلتي حالاتهم من إقرار وجحود، ومَدَّ كل موجودٍ بوجودِ عطائِهِ، وحفظ وجود العالم بإمداد بقائه، وظهر بحكمته في أرضه وقدرته في سمائه.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة عبدٍ مفوِّضٍ لقضائه، مسلِّمٍ له في حُكمِهِ وإمضائِهِ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله المفَضَّل على جميع أنبيائه، المخصوص بجزيل فضله وعطائه، الفاتح الخاتم وليس ذلك لسوائه، الشافع لكل العباد حين يجمعهم الحق لِفصلِ قضائه، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه المستمسكين بولائه، وسلم تسليمًا كثيرًا.

اعلم يا أخي جعلك الله من أهل حُبِّه، وأتحفك بوجود قربه، وأذاقك من شراب أهل وُدِّهِ، وأمِنكَ بدوام وصْلتِهِ من إعراضه وصَدِّهِ، ووصَلك بعباده الذين خَصَّهم بمراسلاته، وجَبَرَ كسرَ قلوبهم لما علموا أنه لا تدركه الأبصار لنور تجلياته، وفتح لهم رياض القرب وهبَّ منها على قلوبهم واردات نفحاته، أشهدهُم سابقَ تدبيرِهِ فيهم فسلمُوا إليه القياد وكشَفَ عن خفي لطفه في منعه فتركوا المنازعة والعناد، فهم مستسلمون إليه ومتوكلون عليه.

أما بعد،،،

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: **p** يُحشَر المَرءُ عَلى دِينِ خَلِيلِهِ فليَنظُر أحُدُكم مَن يُخَالِل **i** [1]، فإذا علمت أيها الأخ الشقيق، فلا تُخالل إلا من ينهضك حالهُ، ويَدُلك على الله مقالهُ، وذلك هو الفقير المتجرِّد عن السِّوى، المقبل على المولى، فليست اللّذة إلا مخاللته، ولا السعادة إلا خدمته ومصاحبته، فلذلك قال الشيخ العارف المتمكن أبو مدين رضي الله تعالى عنه.

---

(1) لم نقف على تخريجٍ لهذا الحديث بلفظه فيما نمتلك من مصادر، واللفظ المخرَّج عند أبي داود والترمذي وأحمد وغيرهم هو **p** الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلْ **i** .

لذَّة الطريق في صحبة أهل التحقيق

مَـــا لَـــذَّةُ الْعَـــيْشِ إلاَّ صُـــحْبَةُ الْفُقَـــرَا
هُـــمُ السَّـــلاطِينُ والسَّـــادَاتُ والأُمَـــرَا

أي ما لذة عَيشِ السالك في طريق مولاه إلا صحبة الفقرا، والفقراء جمع فقير، والفقير هو المتجرد عن الخلائق، المعرض عن العوائق، لم يبق له قبلة ولا مقصد إلا الله تعالى، وقد أعرض عن كل شيء سواه، وتحقق بحقيقة لا إله إلا الله محمد رسول الله، فمثل هذا مصاحبته تذيقك لذة الطريق، وتريق في جميع فؤادك من شراب القوم أهنى رحيق، ويُعرفك الطريق، ويقطع لك العتاب، ويزيل عن قلبك التعويق، وينهضك بهمَّتهِ ويرفعك إلى أعلى الدرجات، ومن كان كذلك فهو السلطان على الحقيقة، والسيد على أهل الطريقة، والأمير على أهل البصيرة.

فلا تخالف أيها السالك طريقه، فاجتهد أيها السالك المُجِدُّ في تحصيل هذا الرفيق، واصحبه وتأدَّب في مجالسه، ويزيل عنك ببركة صحبته كل تعويق، كما قال رضي الله تعالى عنه:

أدب الصحبة

فَاصْـــحَبْهُمُ وتَـــأَدَّبْ فِـــي مَجَالِسِـــهِمْ
وخَـــلِّ حَظَّـــكَ مَهْمَـــا قَـــدَّمُوكَ وَرَا

أي اصحب الفقراء، وتأدب معهم في مجالستهم فإن الصحبة شبح، والأدب روحها، فإذا اجتمع لك بين الشبح والروح حُزتَ فائدة صحبته، وإلا كانت صحبتك ميتة فأي فائدة ترجوها من الميت.

ومن أهم أدب الصحبة أن تخلف حظوظك وراك، ولا تكن همتك مصروفة إلا لامتثال أوامرهم، فعند ذلك يشكر مسعاك، فإذا تخلقت بذلك فبادر واستغنم الحضور وأخلص في ذلك ترفع درجتك وتعلو همتك والقصور، كما قال رضي الله عنه:

الرضى في الحضور

واسْـــتَغْنِمِ الْوَقْـــتَ واحْضُـــرْ دَائمًـــا مَعَهُـــمْ

واعْلَـــمْ بـــأَنَّ الرِّضَـــا يَخُـــتصُّ[1] مـــن حَضَـــرَا

أي واستغنم وقت صحبة الفقراء، واحضر دائمًا معهم بقلبك وقالبك تسري إليك زوائدهم، وتغمرك فوائدهم، وينصح ظاهرك بالتأدب بآدابهم، ويشرق باطنك بالتحلي بأنوارهم، فإن من جالس جانس، فإن جلست مع المحزون حزنت، وإن جلست مع المسرور سُرِرت، وإن جلست مع الغافلين سَرَت إليك الغفلة وإن جلست مع الذاكرين انتبهت من غفلتك وسرت إليك اليقظة، فإنهم القوم لا يشقى جليسهم، فكيف يشقى خادمهم ومحبهم وأنيسهم وما أحسن ما قيل:

لي ســـــادةٌ مـــــن عـــــزِّهم أقـــــدامهم فـــــوق الجبـــــاه

إن لم أكـــــن منـــــهم فلـــــي في حبـــــهم عِـــــزٌّ وجـــــاه

واعلم أن هذا الرضا، وهذا المقام يخصُّ من حضر معهم بالتأدب، وخرج عن نفسه، وتحلى باللذة والانكسار، فاخرج عنك إذا حضرت بين أيديهم، وانطرح وانكسِر إذا حللت بناديهم، فعند ذلك تذوق لذة الحضور، واستعن على ذلك بملازمة الصَّمت، تشرق لك أنوار الفرح، ويغمرك السرور، كما قال رضي الله تعالى عنه:

التستر بالجهل

ولاَزِم الصَّـــــــمت إلاَّ إنْ سُـــــــئِلْتَ فَقُـــــــلْ

لاَ عِلْـــمَ عِنْـــدِي وكُـــنْ بالْجَهْـــلِ مُسْـــتَتِرَا

الصَّمت عند أهل الطريقة من لازمه ارتفع بنيانه، وتمَّ غِراسه، وهو نوعان: صمت باللسان وصمت بالجَنان وكلاهما لا بدَّ منه في الطريق فمن صمت قلبه ونطق لسانه نطق بالحكمة، ومن صمت لسانه وصمت قلبه تجلى له سره، وكلمه ربه، وهذا غاية الصمت، وكلام الشيخ قابل لذلك فالزم الصمت أيها السالك إلا إن سُئِلت، فإن سُئلتَ فارجع إلى أصلِك ووصلك وقل لا علم عندي واستتر بالجهل لتشرق لك أنوار العلم اللدُنيِّ، فإنك مهما اعترفت بجهلك ورجعت إلى أصلِك

(1) جاءت بلفظ (يخصُّ) في شرح سيدي شهاب الدين بن علان رضي الله تعالى عنه على القصيدة.

لاحت لك معرفة نفسك، فإذا عرفتها عرفت ربك، كما روي في الحديث: p مَن عَرفَ نفسَهُ عَرفَ رَبَّهُ i [1]، وكل ذلك من فوائد الصمت ولزوم آدابه، فاصمت وتأدب ولازم الباب تكن من أحبابه، وما أحسن ما قيل:

لا أبرح البـــاب حـــتى تصـــلحوا عـــوجي وتقبلـــــوني علـــــى عـــــيبي ونقصـــــاني

فـــإن رضـــيتم فيـــا عـــزي ويـــا شـــرفي وإن أبيـــــتم فمـــــن أرجـــــو لعصـــــياني

فانهض أيها الأخ إلى باب مولاك بهمَّة علية، وتحقق بعبوديتك تشرق عليك أنواره السنية، كما أشار إلى ذلك الشيخ رضي الله تعالى عنه بقوله:

التحقيق بأوصاف العبودية

ولا تَـــــرَى العَيْـــــبَ إلاَّ فِيـــــكَ مُعْتَقِـــــدًا

عَيْبًـــــا بَـــــدَا بيِّنًـــــا لَكِنَّـــــهُ اسْـــــتَتَرا

أي: تحقق بأوصافك من فقرك وضعفك وعجزك وذلتك، فإذا تحققت بأوصافك وشَهِدتْ لنفسك عيوبًا لكنها مستترة، فعند ذلك تحظى بظهور أوصاف مولاك فيك، كما قيل: "سُبحانَ مَن سَتَرَ سِرَّ الخصوصية في ظهور البشرية وظهر بعظمة الربوبية في إظهار العبودية"، وافهم من هنا سر معنى قوله تعالى: [سُبْحَانَ الذِي أسْرَى بِعَبدِهِ](سورة الإسراء من الآية: 1)، و لم يَقل برسوله ولا بنبيِّهِ، أشار إلى ذلك المعنى الرفيع الذي لا ينال إلا من العبودية لذلك قيل:

لا تـــدعني إلا بيـــا عبـــدها فإنـــه أشـــرف أسمـــائي

فانكسِر أيها الأخ وانطرح بالطريق، ولا تَرَى لك حالاً ولا مقالاً يزل عنك كل تعويق، واستغفر من كل ما يخطر بقلبك في عبوديتك، وقُمْ على قدمِ الاعتراف، وانصِفْ من نفسك تبلغ أعلى درجات المنازل وتفنى بشريتك، كما قال رضي الله تعالى عنه:

(1) ليس بحديث، إنما هو من كلام يحيى بن معاذ الرازي، وللإمام السيوطي رحمه الله تعالى فيه رسالة أسماها (القول الأشبه في حديث: من عرف نفسه فقد عرف ربه).

دوام شهود تقصيرك

وحُـــطَّ رَأْسَـــكَ واسْـــتَغْفِر بـــلا سَـــبَبِ

وقـــف[1] عَلَـــى قَـــدَمِ الإنْصَـــافِ مُعْتَـــذِرَا

أي: تواضع وانكسر، وحُطَّ أشرف ما عندك، وهو رأسك في أخفض ما يكون وهي الأرض؛ لتحوز مقام القرب، كما ورد في الحديث: p أقرَبُ ما يَكُونُ العَبدُ إلى اللهِ تعَالى وَهو سَاجِد i (رواه مسلم وغيره)، لأن قُرب العبد، بتواضعه وانكساره وخروجه عن أوصاف بشريته، وأشهد نفسك دائمًا مُذنبًا، ولو لم يظهر عليك سبب الذنب، فإن العبد لا يخلو من تقصير، وقِف على قدَمِ الإنصاف من ذنوبك خجلاً من سيئاتك وعيوبك، فإن من عامل المخلوق هذه المعاملة أحبَّهُ و لم يشهد له ذنبًا وكانت مساوءه عنده محاسن، فكيف إذا عامل بهذه المعاملة صاحبه الحقيقي الذي إذا تحققه ليس له صاحب سواه، كما ورد في الحديث: p اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ وَالْمَالِ والْوَلَد i [2].

فتأهب أيها الأخ لهذه المعاملة مع إخوانك الفقراء، لتصير لك معراجًا تتوصل بها إلى معاملة ربِّ السماء، وتكون مقبولاً عند الخلق والخالق وتصفو لك المعاملة، وتشرق عليك أنوار الحقائق، قال رضي الله تعالى عنه:

طلب الصفح

وإنْ بَـــدَا مِنْـــكَ عَيْـــبٌ فاعتـــذر[3] وأَقِـــمْ

وَجْـــهَ اعْتِـــذَارِكَ عَمَّـــا فِيـــكَ مِنْـــكَ جَـــرَى

وقُـــلْ عُبَيْـــدُكمو[4] أَوْلَـــى بِصَـــفْحِكُموا[5]

فَسَـــامِحوُا وخُـــذُوا بـــالرِّفْقِ يـــا فُقَـــرَا

هُـــمْ بالتَّفَضُّـــلِ أَوْلَـــى وهـــو شـــيمتهم[1]

فـــلا تخـــف دَرَكًـــا مـــنهم ولا ضـــررا

(1) جاءت بلفظ (قُمْ) في شرح سيدي شهاب الدين بن علان رضي الله تعالى عنه على القصيدة.

(2) لم نقف على تخريجٍ لهذا الحديث بلفظه فيما نمتلك من مصادر، واللفظ المخرَّج عند أبي داود والنسائي وغيرهما هو p اللَّهُمَّ أَنْتَ الصَّاحِبُ فِي السَّفَرِ وَالْخَلِيفَةُ فِي الأَهْلِ وَالْمَالِ i .

(3) جاءت بلفظ (فاعترف) في شرح سيدي شهاب الدين بن علان رضي الله تعالى عنه على القصيدة.

(4) جاءت (عُبَيْدكمُ) في شرح سيدي شهاب الدين بن علان رضي الله تعالى عنه على القصيدة.

(5) جاءت بلفظ (بصفحكم) في شرح سيدي شهاب الدين بن علان رضي الله تعالى عنه على القصيدة.

أي: لِيكن شأنك دائمًا التواضع والانكسار وطلب المعذرة والاستغفار، سواء وقع منك ذنب أو لم يقع، وإن بدا منك عيبٌ أو ذنب فاعترف واستغفر، فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له، وليس الشأن أن لا تذنب، إنما الشأن أن لا تصِرَّ على الذنب كما ورد: "أنِينُ المُذنبِينَ عِندَ الله خَيرٌ مِن زَجلُ المُسَبحِين عَجَبًا وافتخَارًا"، ولذلك قلتُ في (الحِكَمْ): "ربما فتح لك باب الطاعة وما فتح لك باب القبول وقضى عليك بالذنب وكان سببًا لوصول معصِيةٍ أورثتْ ذلاً وانكِسَارًا، خير من طاعةٍ أورثت عِزًّا واستكبَارًا ومع اعترافك واستغفارك أقِم وجه اعتذارك عما جرى منك؛ فيكون ذلك مُمْحِي للذنب وادخل في القبول، وذُلَّ وتواضَع وانكسِر وقل عبيدكم أولى بصفحِكُم؛ لأن العبد ليس له إلا باب مولاه"، وما أحسن ما قيل:

ألقيـــت في بـــابكم عنـــاني ولم أبـــال بمـــا عنـــاني

فـــزال قبضـــي وزاد بســـطي وانقلـــب الخـــوف بالأمـــاني

فسامحوا عُبَيدُكم يا فقرا، وخذوا بالرفق وعاملوني به، فإني عبدٌ فقيرٌ لا يصلحني إلا المعاملة بالرفق والفضل، ولا اعتماد لي إلا على الفضل لا بحولي ولا قوتي، مذهبي العجز والسلام.

ثم قال رضي الله تعالى عنه إنهم أولى بهذا الشيء، وهو شِيمتهم و لم يزلوا متفضلين، وهذه معاملتهم مع أصحابهم وهي سجيتهم، وكيف لا تكون سجيتهم وهم متخلقون بأخلاق مولاهم، كما ورد: **p** تَخَلقوا بأخْلاقِ الله **i** [2].

فلا تخف منهم ضررًا أيها السالك المصاحب لهم وتمسَّك بأذيَالهم؛ فإنهم القوم لا يشقى جليسهم، فإذا عرفت ذلك أيها السالك فتخلق بأخلاقهم الكريمة، وجُد بالتفتي على الإخوان، وغضَّ الطرف عن عثرتهم تكن آخذًا من أوصافهم أحسن هيئة، قال رضي الله تعالى عنه:

بذل الأمـوال، وغضُّ الطرف عن العثرات

وبـــالتَّغنِّي عَلَـــى الإخْـــوَانِ جُـــدْ أَبَـــدَا

حِسًّـــا ومَعْنـــىً وغُـــضَّ الطَّـــرْفَ إنْ عَثَـــرَا

أي: وتكرَّم على إخوانك، وجُد عليهم أبدًا، إما في الحِسِّ فببَذل الأموال، وأما في المعنى فبصرف همَّة الأحوال، ولا تبخل عليهم بشيء يمكنك إيصاله إليهم، فإن السماحة لبُّ الطريق، ومن تخلق بها فقد زال عن قلبه كل تعويق.

قال الشيخ عبد القادر رضي الله عنه: "إخواني: ما وصَلتُ إلى الله تعالى بقيام ليل، ولا صيام نهار، ولا دراسة علم، ولكن وصلت إلى الله بالكرم والتواضع وسلامة الصَّدر".

---

(1) جاءت بلفظ (سيمتهم) في شرح سيدي شهاب الدين بن علان رضي الله تعالى عنه على القصيدة.

(2) لم نقف على تخريجٍ لهذا الحديث فيما نمتلك من مصادر.

فدَلَّ كلام الشيخ رضي الله عنه أن الكرم هو الأساس، وأن التواضع يتم للسالك به الغراس، فإذا تمَّ له هذان الأمران سلم صدره من العلائق، وزال عن طريقه كل عائق، ولذلك ورد في الحديث: p إنَّ في الجنة لغُرَفًا، يُرى ظاهِرها مِن باطِنِها، وباطنُها من ظاهِرِها، أعدَّها الله تعالى لِمَنْ ألانَ الكَلام، وأطعَمَ الطعام، وتابَعَ الصيام، وصَلى بالليل والناسُ نيام i (رواه الإمام أحمد)، فتأمل هذا الحديث يا أخي حيث بدأ صلى الله عليه وآله وسلم بإلانة الكلام وهو إشارة إلى التواضع، ثم ثنى بإطعام الطعام وهو إشارة إلى الكرم، ثم أتى بعد ذلك بالصَّلاة والصِّيام كما أشار إليه الشيخ عبدالقادر، فانهض أخي إلى هذه المآثر وبادر واجمع معها حُسْنَ مكارم الأخلاق، وغُضَّ الطرف عن مساويء الإخوان إن وقفت منهم على عثرة، ولا تشهد إلا محاسنهم، كما قال رضي الله تعالى عنه في حكمه الفتوحية: "رؤية محاسن العبيد والغيبة عن مساوئهم ذلك شيء من كمال التوحيد"، كما قيل:

إذا ما رأيــت الله في الكــل فــاعلاً رأيــت جميــع الكائنـــات ملاحـــا

فإذا تخلقت أيها الأخ بهذه الخصال الشريفة، فقد تأهلتَ للإقبال على الشيخ، فانهض إلى عتبة بابه، وراقبه بهمَّة منيفة، كما أشار إلى ذلك الشيخ رضي الله تعالى عنه بقوله:

مراقبة الشيخ في أحواله

ورَاقِـــــب الشَّـــــيْخَ في أَحْوَالِـــــهِ فَعَسَـــــى

يَـــــرَى عَلَيْـــــكَ مِـــــنِ استِحسَـــــانِهِ أَثَـــــرا

أي: إذا تخلقتَ بما تقدم من الآداب، ووصلت بافتقارك وانكسارك إلى الشيخ، وتمسَّكت بأثر تلك الأعتاب فراقب أحواله، واجتهد في حصول مراضيه، وانكسِر واخضع له في كل حين، فإنه الترياق والشفاء، وإن قلوب المشايخ ترياق الطريق، ومن سَعِد بذلك تمَّ له المطلوب وتخلص من كل تعويق، واجتهد أيها الأخ في مشاهدة هذا المعنى، فعسى يرى عليك من استحسانه لحالك أثرًا، قال بعضهم: من أشد الحرمان أن تجتمع مع أولياء الله تعالى ولا تُرزق القبول منهم، وما ذلك إلا لسوء الأدب منك، وإلا فلا بُخل من جانبهم ولا نقص من جهتهم، كما قلتُ (الحِكَمْ): "ما الشأن وجود الطلب، إنما الشأن أن تورث حُسن الأدب".

زار بعض السلاطين ضريح أبي يزيد رضي الله تعالى عنه، وقال: "هل هنا أحدٌ ممن اجتمع بأبي يزيد؟"، فأشير إلى شيخ كبير في السِّن كان حاضرًا هناك، فقال له: "هل سمعت شيئًا من كلامه؟"، قال: "نعم، قال: من زارني لا تحرقه النار"، فاستغرب السلطان ذلك الكلام، فقال: "كيف يقول أبو يزيد ذلك وأبو جهل رأى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وهو تحرقه النار"، فقال ذلك الشيخ للسلطان: "أبو جهل لم ير النبي صلى الله عليه وآله وسلم، إنما رأى يتيم أبي طالب، ولو رآه صلى الله عليه وآله وسلم لم تحرقه النار"، ففهم السلطان كلامه وأعجبه هذا الجواب منه، أي: إنه لم يره بالتعظيم والإكرام

واعتقاد أنه رسول الله، ولو رآه بهذا المعنى لم تحرقه النار، ولكنه رآه باحتقار واعتقاد أنه يتيم أبي طالب، فلم تنفعه تلك الرؤية.

وأنت يا أخي، لو اجتمعت بقطبِ الوقت و لم تتأدب لم تنفعك تلك الرؤية، بل كانت مضرَّتُها عليك أكثر من منفعتها، إذا فهمت ذلك أيها السالك فتأدب بين يدي الشيخ، واجتهد أن تسلك أحسن المسالك، وخذ ما عرفت بجد واجتهاد، وانهض في خدمته، واخلص في ذلك لتسود مع من ساد، كما قال:

الاخلاص في خدمة الشيخ

وقَـــدِّمِ الجِـــدَّ وانْهـــضْ عِنْـــدَ خِدْمَتِـــهِ
عَسَـــاهُ يَرْضَـــى وحَـــاذِر أنْ تكـــن[1] ضَـــجِرَا
فَفـــي رِضَـــاهُ رضَـــا البَـــاري وطَاعَتِـــهِ
يَرْضَـــى عَلَيْـــكَ فكـــن[2] مـــن تَرْكِـــهِ[3] حَـــذِرَا

أي وانهض في خدمة الشيخ بالجدِّ فعساك تحوز رضاه فتسُود مع من ساد، واحذر أن تضجر، ففي الضَّجر الفساد، ولازم أعتاب بابه في الصباح والمساء لتحوز منه الوداد، وما أحسن ما قيل:

اصـــبر علـــى مضـــض الإدلاج في الســـحر ... وللنـــذور علـــى الطاعـــات بـــالبكر
وقـــل مـــن جـــدَّ في أمـــر يؤملـــه ... مـــا استصـــحب الصـــبر إلا فـــاز بـــالظفر

فإن ظفرت أيها السالك برضاه رضي الله تعالى عنك ونلت فوق ما تمنيت، فاستقم أيها الأخ في رِضا شيخك وطاعته تظفر بطاعة مولاك ورضاه، وتفوز بجزيل كرامته، فعُضَّ أيها الأخ بالنواجذ على خِدمة الشيخ إن ظفرت بالوصول إليه، واعلم أن السعادة قد شملتك من جميع جهاتك، إذا عرَّفك الله تعالى به، وأطلعك تعالى عليه، فإن الظفر به لا سيما في هذه الأيام أعزُّ من الكبريت الأحمر، واعلم أن طريق القوم دارسة وحال من يدعيها كما ترى، لكن إذا ساعدتك العناية ظفرتَ وشَمَمْتَ من نفحة طيبه ما يفوق المِسك الأذفر، ولذلك قال رضي الله تعالى عنه وعنا به، آمين:

---

(1) جاءت بلفظ (ترُى) في شرح سيدي شهاب الدين بن علان رضي الله تعالى عنه على القصيدة.
(2) جاءت بلفظ (وكن) في شرح سيدي شهاب الدين بن علان رضي الله تعالى عنه على القصيدة.
(3) جاءت بلفظ (تركها) في شرح سيدي شهاب الدين بن علان رضي الله تعالى عنه على القصيدة.

تشويق السالكين إلى طريق أهل اليقين

واعْلَـــمْ بـــأنَّ طَريـــقَ القَـــوْمِ دَارِسَـــةٌ
وحَـــالُ مَـــنْ يَـــدَّعِيهَا الْيَـــوْمَ كَيْـــفَ تَـــرَى
متـــى أَرَاهُـــم وأَنَّـــى لِـــي بـــرُؤْيَتِهِمْ
أوْ تَسْـــمَعُ الأُذْنُ مِنِّـــي عَـــنْهُمُ خَبَـــرَا
مـــنْ لِـــي وأنَّـــى لِمثلِـــي أنْ يُـــزَاحِمَهُمْ
عَلَـــى مَـــوَارِدَ لَـــمْ آلـــف[1] بِهِـــا كَـــدَرَا
أُحِـــبُّهُمْ وأُدَارِيهِـــمْ وأُوثِـــرُهُمْ
بِمُهْجَتِـــي وخُصُوصًـــا مِـــنْهُمُ نَفَـــرَا

شرع الشيخ رضي الله تعالى عنه يشوق السالكين إلى طريق أهله، ويخبرهم أن طريقهم دارسة، وحال من يدعيها اليوم كما ترى في الفترة حتى كادت الهمم أن تكون من الطلب آيسة، وهكذا شأن طريق القوم لعزتها، كأنها في كل عصر مفقودة، ولا يظفر بها إلا الفرد بعد الفرد، وهذه سُنَّة معهودة، وذلك أن الجوهر النفيس لا يزال عزيز الوجود، يكاد لعزته يُحكَم بأنه ليس بموجود، والطريق أهلها مخفية في العالم خفاء ليلة القدر في شهر رمضان، وخفاء ساعة الجمعة في يومها؛ حتى يجتهد الطالب في طلبه بقدر الإمكان، فإن من جَدَّ وَجَدَ، ومن قرع الباب ولَجَّ وَلَجَ.

قلتُ: بعد أن ذكر لا بد من الشيخ في الطريق على سبيل السؤال والجواب، كيف تأمرنا بذلك وقد قيل إن وجود الشيخ كالكبريت الأحمر وكالعنقاء، من ذا الذي بوجودها يظفر، كيف تأمرني بتحصيلِ مَن هذا شأنُهُ، فقال: لو صدقتَ في الطلب وكنتَ في طلبه كالطفل والظمآن لا يقرُّ لهم قرار ولا تسكن لوعتهم حتى يظفروا بمقصودهم، فأشار الشيخ رضي الله عنه إلى أن الشيخ موجود، وكيف لا يكون موجودًا وعمارة العالم إنما هي بأمثاله، فإن العالَمَ شخصٌ والأولياء روحه، فما دام العالَم موجودًا لا بدَّ من وجودهم، لكن لشدَّة خفائهم وعدم ظهورهم حكِم بفقدانهم.

فاجتهد أيها الأخ واصدق في الطلب تجدِ المطلوب، واستعِن على ذلك الطلب بمَدَدِ علام الغيوب، فإن الظفر لا يحصل إلا بمجرد فضله، وإذا أوصلك إلى الشيخ فقد أوصلك إليه، كما قلت (الحِكَمْ): "سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه، و لم يُوصِل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه".

ثم إن الشيخ رضي الله عنه، لما ذكر عِزَّة الطريق وفقدان أهلها، شرع يتأسف على الاجتماع بهم ويتمناه، ويستبعد من نفسه حصول ذلك، والتشرف بلقائه تواضعًا منه وانكسارًا، وهضمًا لنفسه واحتقارًا، ولذا قال بعد ذلك: "من لي وأنَّى

لمثلي أن يزاحمهم ... إلخ"، وهذا شأن العارف لنفسه بنفسه، الممتلىء من معرفة ربِّه، المتحلي بواردات قدسه؛ لأنه لا يرى لنفسه حالاً ولا مقالاً، بل يرى نفسه أقلَّ من كل شيء، وهذا هو النظر التام، كما قيل:

إذا زاد علـــم المـــرء زاد تواضـــعا وإن زاد جهـــل المـــرء زاد ترفعـــا

وفي الغصن من حمـــل الثمـــار منالـــه فإن يَعْـــرُ مـــن حمـــل الثمـــار تمنُّعـــا

فانظر إلى الشيخ أبي مدين ورفعته في الطريق مع أنه وصل من تربيته اثنا عشر ألف مريد، وانظر إلى هذا التنزل منه والتدلي بأغصان شجرة معرفته إلى أرض الخضوع والانكسار، حتى أنه لم ير نفسه أهلاً للاجتماع بأهل هذه الطريقة، ويزيده هذا الانخفاض من الارتفاع؛ لأن الشجرة لا يزيدها انخفاضها في عروقها إلا ارتفاعًا في رأسها.

فتواضع أيها الأخ في الطريق، وخذ هذا الأصل العظيم من هذا العارف المتمكن يزل عنك كل تعويق.

ثم قال رضي الله عنه بعد ذلك: "أحبهم ... إلى آخره"، أي: وإن لم أكن أنا منهم فإني أحبهم، ومن أحب قومًا فهو منهم، كما ورد في الحديث p المَرءُ مَعَ مَنْ أحَبَّ i ، كما قيل:

أُحـــبُّ الصـــالحين ولســـتُ منـــهم لعلـــي أن أنـــال بهـــم شـــفاعة

وأكره من كانـــت بضـــاعته المعاصـــي وإن كنَّـــا ســـواء في البضـــاعة

وهذا أيضا منه رضي الله تعالى عنه من تمام التنزل السابق وتكميلاً وتتميمًا، ولهذا تواضع الذي لم يلحق جواد شرفه في ميدانه لاحق، نفعنا الله تعالى ببركاته ووفقنا من معاملاته؛ لأن هذه خصال القوم وصفاتهم، ولذلك ارتفعت رتبهم، وجزلت عطيتهم كما وصفهم رضي الله عنه بقوله:

من خصال الكرام

قَـــوْمٌ كِـــرَامُ السَّـــجَايَا حَيْـــث[1] مـــا جَلَسُـــوا

يَبْقَـــى المَكَـــانُ عَلَـــى آثَـــارِهِمْ عَطِـــرَا

يُهْـــدِي التَّصَـــوُّفُ مِـــنْ أَخْلاقِهِـــمْ طُرُقـــا[2]

حُسْـــنُ التَّـــأَلُّفِ مِـــنْهُمْ رَاقَـــني نَظَـــرَا

هُـــمْ أَهْـــلُ وُدّي وأَحْبَـــابي الَّـــذِين هُـــمُ

مِمَّـــنْ يَجُـــرُّ ذُيُـــولَ العِـــزِّ مُفْتَخِـــرَا

لاَ زَالَ شَـــــمْلِي بِهِـــــمْ فِي اللهِ مُجْتَمِعَـــــا

وذَنْبُنَـــــا فِيـــــهِ مَغْفُـــــورًا ومُغْتَفَـــــرَا

ثُـــــمَّ الصَّـــــلاَةُ عَلَـــــى المُخْتَـــــارِ سَـــــيِّدِنَا

مُحَمَّـــــدٍ خَيْـــــرِ مَـــــنْ أَوْفَـــــى ومَـــــنْ نَـــــذَرَا

أي قوم سجاياهم كريمة وهمتهم عظيمة، حيث ما جلسوا تبقى آثار نفحات عطرهم في المكان ظاهرة، وأين ما توجهوا سطعت شمس معارفهم فتشرق القلوب، وتصلح بهم الدنيا والآخرة، يهدي التصوف للسالك المشتاق من أخلاقهم طرقًا مجيدة، تدل على الطريق ويسير في سلوكه سيرة حميدة، فلذلك جمعوا أحسن تأليف حتى راق كل ناظر، وجَدُّوا في أكمل معنى لطيف حتى اكتحلت بكحل إثمدهم أنوار البصائر.

ولذلك قال الشيخ رضي الله تعالى عنه بعد ذلك: "هم أهل ودي وأحبابي ... إلى آخره"، فإن الشخص لا يحبُّ إلا من جانسه، ولا يَوَد إلا من كان بينه وبينه مؤانسة.

وفي هذا الكلام إشارة إلى أنه رضِي الله عنه من جملتهم، وطينته من طينتهم، وما تقدَّم منه في التواضع والانكسار دليلٌ على التحقيق في هذا المجد والفخار كما تقدمت الإشارة إلى ذلك، فنسأل الله تبارك وتعالى أن يسلُك بنا أحسن المسالك.

ثم دعا وسأل أنه لا يزال شمله مجتمعًا بهم في الله تعالى، وذنبه مغفورًا، ونحن نسأله أيضًا إتمام الصلاة والسلام على سيدنا محمد المختار خير من أوفى ومن نذر ومن أكرم الجار، وعلى آله وصحبه السادة الأبرار، والتابعين وتابعيهم بإحسانٍ إلى يوم القرار، وهذا الرقم لمن تعطش ليله في معاني هذه الأبيات، وإلا فنحن معترفون بالعجز والتقصير عن معانيها وإنما الأعمال بالنيات، والله تبارك وتعالى أعلم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

وصلِّ اللهم وسلم وزد وبارك على سيدنا ومولانا محمَّد وعلى آل بيته وصحبه الطيبين الطاهرين

إعداد:

واحة آل البيت لإحياء التراث والعلوم - فلسطين

16 مُحرَّم 1434 هجري الموافق 30 نوفمبر 2012 رومي